عوامل التطور اللغوي ومظاهر الثراء في اللغة العربية

ربيعة حنيش

جامعة تيزي–وزو

اللغة كائن حي عرضة للتطور والنمو كبقية الكائنات الأخرى فقد نمت وتفاعلت مع كل التطورات الحضارية، واستجابت لكل متطلبات العصر، وسايرت ركب التقدم والتطور، ولهذا التطور والمسايرة أسباب ووسائل ساعدتها على ذلك.

والعوامل المؤثرة في أية لغة من اللغات هي نفسها المؤثرة في اللغة العربية وسنتطرق إلى أهمها والمتمثلة في عاملين رئيسين هما:[1]

- عامل يوجد في اللغة نفسها أي في بنية الألفاظ: أي أنه يكون في بنية الكلمة من حيث الصرف النحو والتركيب، وأثر ذلك كله من تغير وتطور في الألفاظ والدلالات.
- عامل خارجي يتعلق بالنواحي الحضارية والسياسية والاقتصادية والتقدم العلمي والتقني في المجتمع وهذا يكون واضحا من خلال ما سيأتي مما سنعرض من أهم أنواع وطرق التوسع اللغوي الذي عرفته اللغة العربية سعيا للثراء اللغوي والنماء لمسايرة الحضارة والتقدم العلمي، مع المحافظة على سلامتها من كل الأعراض السلبية التي تصيب اللغات الأخرى.

وسنقوم بعرض أثر التوسع الاشتقاقي والتوسع المجازي باعتبارهما عاملين مهمين في إثراء اللغة وتوسعها بعد أن نتطرق إلى العوامل الخارجية، وكما نعلم فإن المجتمع الإنساني هو مجموعة من العادات والتقاليد والنظم كالنظام الاقتصادي والسياسي والديني، فكل المؤسسات الفنية والمعاهد والمساجد والمؤسسات الإعلامية

تعتمد على اللغة باعتبارها أهم وسيلة للتواصل والتفاهم بين الأفراد، في مؤسسة يطلق عليها في العصر الحديث اسم المجتمع الذي لا يمكن إلا للغة أن تعكس ما به، وتسير التبادل المادي والفكري فيه، وطالما أن المجتمع يتغير ويتطور حسب الحاجة فإن اللغة تتغير وتتطور مسايرة له، فهي المرآة العاكسة له دوما.

1. **عوامل التغير والتطور في الألفاظ:**

- **اللهجات:** لقد كانت اللغة العربية قبل الإسلام لهجات عدّة تعرف بلهجات القبائل، وبينها اختلاف في اللفظ كلهجات تميم وربيعة ومضر وقيس وهذيل وقضاعة وغيرها كما هو مشهور ومعروف.

ولكون أهل مكة من قريش الذين كانوا أهل تجارة وسفر شمالا إلى الشام والعراق ومصر، وجنوبا إلى اليمن، زيادة على ما كان يجتمع حول الكعبة من مختلف الأمم، ومن بينهم الأنباط واليمنية والأحباش والمصريون، إضافة إلى اليهود والنصارى الذين كانوا يقيمون في بعض مدن الجزيرة العربية، مما عمل على ارتقاء اللغة العربية بما تولد فيها أو دخلها من الألفاظ التي لم يكن لها مثيل في غيرها من اللغات، وزاد ذلك بنزول الحبشة والفرس في اليمن والحجاز على اثر استبداد "ذي نواس" ملك اليمن، وقد حدث هذا في القرنين الأول والثاني قبل الإسلام. ولما فتح الفرس اليمن، أقاموا فيها واختلطوا بأهلها بالتجارة والتزاوج وتوطنوا وكانوا يفدون إلى الحجاز، وأهل الحجاز يترددون إليهم.[2]

من هذا يتبين لنا أنّ العوامل المختلفة التي مرّت على العرب تختلف من ناحية أدائها ومعظم هذه الاختلافات على ما رأيت اختلافات صوتية.

وترجع هذه الاختلافات إلى الصرف والصوت والدلالة والنحو. ومادام اختلاف الصوت في القراءات القرآنية أحد هذه العوامل فإن العوامل الأخرى مكملة لها. وبهذا يكون الاختلاف في ألفاظ بعض اللهجات راجعا إلى الاختلاف في الصرف

والنحو والدلالة، بالإضافة إلى الاختلاف في الصوت كما هو ظاهر في القراءات القرآنية المختلفة.

ومنها نذكر بعض النماذج التي تظهر فيها بعض من الاختلافات في القراءات كما أوردها الدكتور "الراجحي"[3].

1- قرأ الجمهور: «فول وجهك شطر المسجد الحرام» وقرأ ابن أبي عيلة: «فول وجهك تلقاء المسجد الحرام».

هذه القراءة تقدم لفظتين بمعنى واحد، وهما (شطر) و(تلقاء)، ويذكر «أبو عبيد» أن التلقاء معناها (النحو) في لهجة كنانة. إذن نحن أمام لفظتين مترادفتين لهما المعنى نفسه وهو النحو والقصد.

ويقول الدكتور «الراجحي» إن لفظة (الشطر) معناها المعجمي هو نصف الشيء، وهو ما نظنه الأصل الأول لمعاني هذه اللفظة، ثم كان من معانيها المتطورة بعد ذلك (النحو أو القصد).

وأما اللفظة الثانية (تلقاء) فنحسب أن معناها الأصلي مأخوذ من (اللقوة) وهي داء يكون في الوجه يعوج منه الشدق، فكأن (تلقاء) مأخوذة من اتجاه الوجه في ناحية.

وسنرى فيما يلي استعمال (القراءتين) اللفظتين في القرآن:

1- « فلنوليك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام».[4]

2- « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام».[5]

3- « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام».[6]

4- « وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره».[7]

5- « وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره».[8]

ووردت (تلقاء) في ثلاثة مواضع:

1- «وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا...»[8]

2- «قل/ ما يكون لي أن أبد له من تلقاء نفسي».[9]

3- «ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل».[10]

ومن هذه القراءات المختلفة يظهر لنا أن كلمة (شطر) أكثر ورودا من (تلقاء) إذ من الواضح أن الأولى مستعملة في المواضع كلها مع الفعل (ولى) ومع (الوجه)، (وجهك أو وجوهكم) بينما استعملت (تلقاء) استعمالات مختلفة بغير هذا التحديد، ولم نعثر في استعمال آخر على (شطر) مسبوقة بحرف جركما استعملت (تلقاء) كذلك (من تلقاء نفسي).

وإذا كان صحيحا ما ذكره «أبو عبيدة» من أن: «(تلقاء) معناها "نحو" في لهجة كنانة، فنحن نعرف أن كنانة من القبائل الحجازية التي كانت تجاوز قريشا».[11]

إن اختلاف اللهجات أدى إلى وجود كثير من الألفاظ المترادفة والتي كانت تستعمل في كل قبيلة بمعنى واحد، وان اختلفت الألفاظ. فمثلا كلمة (البر، الحنطة القمح) كلها تحمل نفس المعنى وهو الغذاء الذي يطحن ويعجن ويوضع في الفرن ويتحول إلى خبز يؤكل. وإضافة إلى الترادف نجد المشترك اللفظي وهو دلالة اللفظة الواحدة على عدّة معان، كما نجد أيضا الأضداد وهو أن تتكلم قبيلة بلفظة وأخرى باللفظة نفسها ولكن بمعنى مغاير للمعنى في القبيلة الأولى، "الجون" التي تحمل معنى الأسود والأبيض، وهذا ما سنراه لاحقا.

ومن هنا يبدو أن اختلاف اللهجات كان سببا من الأسباب التي أدت إلى تطور اللفظة العربية وإثرائها ولهذا الاختلاف أثر كبير على العربية وعلى سعتها وكثرة مفرداتها.

وبالرغم من كون القراءات القرآنية المختلفة ذات أثر قليل في التوسع في الاستعمال الدلالي في الألفاظ فإن لغة المحادثة بين أفراد القبائل المختلفة ذات أثر واسع وأكثر شمولا في التوسع في الدلالة اللفظية ومفردات العربية، حتى وإن كان الاستعمال مجازيا فإن هذا أيضا له أثره الكبير في التوسع الدلالي في الألفاظ.[12]

وبهذا نقول إن اختلاف اللهجات العربية ساعدها كثيرا على الثراء والنمو، فقد أثريت بواسطته بعدد غير قليل من الألفاظ ذات دلالا ت مختلفة.

فالرواة عملوا على جمع اللغة مما يسمعونه من القبائل المختلفة اللهجات، فكان من الضروري أن يوجد في اللغة الترادف والاشتراك والأضداد، ولهذا فإن جمع اللغة أيضا عامل من عوامل نمو اللغة وإثراء ألفاظها نظرا لما كان في لهجات القبائل من اختلاف في الألفاظ ومدلولاتها، فجمع الرواة ما جمعوا من هذه اللهجات وبهذا ظهر واضحا أن اختلاف لهجات القبائل على أنواعها هو ما أدى إلى وجود ألفاظ ومعان مغايرة للمعاني المستعملة عند قبيلة أخرى، فمعرفة قبيلة بلفظة ما فإنها تضيف إلى كل ما تعرفه من ألفاظ ألفاظا جديدة عليها ذات دلالات جديدة وهذا ما يؤدي إلى الثراء والنمو اللغوي.

2. – **اختلاف النظم والعلاقات الاجتماعية:** اللغة هي الوسيلة الوحيدة التي تعبر بها أي أمة من الأمم عن آمالها وآلامها وطموحها وانكساراتها، وهي المرآة العاكسة لحضارة الأمة وتاريخها وآدابها، وهي الوسيلة الوحيدة التي تنقل الحضارة بها إلى الأجيال المتعاقبة، وكثيرا ما تتعرض إحدى الأمم إلى الاستعمار فيفرض لغته ويمحو شخصية شعبها بنشر لغة المستعمر في مختلف الوسائل الحكومية والمدارس والجامعات، وأحسن دليل على ذلك هو احتفاظ بعض البلدان العربية بلغة المستعمر في مختلف المجالات، إلى جانب اللغة الوطنية، بل أحيانا تكاد تطغى هذه اللغة على اللغة الرسمية ومثال ذلك: فرض فرنسا لغتها في كل مستعمراتها كتونس والمغرب والجزائر. فالكلمات الدخيلة عملت عملها في اللغة الرسمية وأصبحت مؤانستها تنمو جنب إلى جنب مع اللغة الرسمية خاصة إذا ما وجدت القبول والتداول بين أفراد المجتمع، فهي ستحيا حياة طويلة جزءا من ألفاظ لدرجة تصبح جزءا من ألفاظ اللغة الوطنية.

ولكون المستعمر يعمل دوما على فرض لغته لفرض سيطرته فإن مكوثه واتساع تعاملاته يساعد على التبادل في المفردات اللغوية، وهذا ما يجعل اللغة الوطنية تحتفظ بألفاظ جديدة لم تكن متداولة فيها من قبل. فالتبادل بين اللغات له الأثر الكبير في انتقال الكثير من الكلمات من الدول الأوربية إلى الدول العربية فاللغات كالكائنات الحية تؤثر وتتأثر وتتبادل فيما بينها الأخذ والعطاء بقدر الحاجة وبهذا يتأثر سلوك أفراد المجتمع وتصرفاتهم وعاداتهم، فاللغة هي الطريق الوحيدة للتواصل بين الأفراد، وهي دائمة التأثر والتأثير بغيرها من اللغات وهذا عامل يؤثر في تطور اللغة إلى جانب عوامل أخرى كالحياة الاجتماعية، والسياسية والثقافية، فأي تطور في أحد هذه المجالات يدعو إلى تطور اللغة ونموها رغبة في مسايرة الحضارة والتقدم العلمي.

- **العامل السياسي:** السياسة وجه من وجوه الحياة الاجتماعية للأفراد فالسياسي يحتاج دوما إلى لغة يتعامل بها ويتواصل عن طريقها للتعريف بسياسته وإيصالها إلى الشعب. وهذه اللغة المستعملة في ميدان السياسة تتعرض دائما للتغير والتجديد حسب تغيرات النظم السائدة في مجتمع من المجتمعات، فلغة السياسة تحمل عناصر لها من الأهمية القصوى، فيها يعبر عن الأنظمة السياسية والمصطلحات المستخدمة والتعبيرات المختلفة تتغير حسب الحاجة من دعاية وتعاملات مع نظم أخرى مغايرة لها.

يقول الدكتور "محمود السعران": «إن وسائل الإقناع الكلامية تختلف من نظام إلى آخر، ففي النظام الفاشستي الهتلري أو الموسوليني تختلف عنها في نظام ديمقراطي، وتختلف كذلك في النظام الشيوعي الروسي مثلا عن النظام الشيوعي الصيني»[13]

والاختلافات في النظم السياسية لابد وأن تترك بصماتها على الحياة اللغوية فكل الكلمات المستعملة سواء في المهرجانات المقامة للدعاية أو تلك المكتوبة على

لافتات في الطرقات أو تلك المستعملة في جرائد الدعاية والخطب السياسية الحماسية تختلف من سياسي لآخر وكل هذا قصد جلب الناخبين والجماهير، من الشعب إليهم فالتسابق في استخدام أحسن العبارات اللافتة تجعلهم يستعملون ألفاظا مغايرة لما يستخدمها الغير وبهذا يحدث تطور في الألفاظ ودلالتها حسب النظم السائدة في مجتمع من المجتمعات، ففي المجتمع الفقير يستخدم السياسي ألفاظا تؤثر في العاطفة مثل: (سنعمل على مساعدتكم، ابنكم)، إضافة إلى إقامة الولائم، أما في المجتمع الثري فيستخدم السياسي ألفاظا مغايرة تفيد الإقناع مخاطبا العقل مثل: (العمل من أجل تحقيق الأهداف، العمل من أجل تحسين الوضعية، تحقيق كل الطموحات...) وغيرها من الكلمات والعبارات المختارة للهدف المراد، فاللغة هي الوسيلة الوحيدة التي تحقق لهم أهدافهم ومن هنا فهي تخضع لكل الحالات المفروضة، وبالتالي تظهر ألفاظا جديدة حسب مستويات الأفراد الذين يوجه إليهم الخطاب السياسي وحسب الوعي والثقافة المنتشرة، فالألفاظ المستخدمة عند المثقفين ليست كمثل المستخدمة في أوساط العامة. والألفاظ تتغير أيضا حسب تغير حكومات الدول ورؤسائها، فالكلمات المستخدمة سابقا في النظام الملكي غير التي نجدها في النظم الحديثة السائدة، مثل: (باشا، مولاي...) وغيرها من الكلمات القديمة، أما حاليا فنجد ألفاظا مثل: (رئيس، سيد..) ظهرت في العصر الحديث وهي ألفاظ جديدة ذات دلالات جديدة. وإضافة إلى تغير الألفاظ المستخدمة عند هؤلاء السياسيين نجد الألفاظ المستخدمة في الحروب قد تغيرت وتبدلت دلالاتها ففي الحرب العالمية الثانية مثلا: استخدمت كلمة ديمقراطية لونا جديدا وتغيرت دلالة "الحلفاء" فبينما كانت تتضمن في نظر الغربيين بغضا للروس لأنهم لم يكونوا (حلفاء) من قبل، أصبحت أثناء الحرب العالمية الثانية تعني – من جملة ما تعنيه – مشاركة الروس في التخلص من عدو مشترك.[14]

إضافة إلى كل هذه الألفاظ نجد ألفاظا جديدة تستعمل في عصرنا الحديث مثل (العالم الثالث، الشعوب النامية، تقرير المصير، الحرب الباردة، اقتلاع الصهيونية...) وما نلاحظه أن للثورة أثرا كبيرا في اختلاف دلالات الألفاظ وظهور ألفاظ جديدة، فالثورة كثيرا ما أماتت ألفاظا وأحيت أخرى، وكثيرا ما كانت كلمات تدل على الهزء والسخرية أثناء الثورات فأصبحت رمزا للعزة والفخار مثلا: (عامل، فلاح)، كذلك نجد مثلا استقلال البلاد العربية بعضها عن بعض فانفصام الوحدة السياسية يؤدي إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية.[15]

من كل هذا يظهر لنا جليا أن الألفاظ في تطور وتقدم مستمر مسايرة للعصر وتطوراته، فدلالاتها تتطور وتتجدد كلما تجددت استعمالاتها. فما يصدر بيانات سياسية بين دولتين أو أكثر تتداخل فيما بين اللغات، وبالتالي تتبادل الألفاظ المستعملة مثل (الصداقة، الأخوة، تدعيم العلاقات)، وبهذا نقول أن اللغة في نمو وتطور مستمر، فكثيرا ما تموت ألفاظ لتعوضها أخرى تظهر جديدة ذات دلالات جديدة حسب مقتضيات أفراد المجتمع. والسياسة هي أحد العوامل المساعدة على هذا النمو والتطور.

- **العامل الاقتصادي:** إن كون اللغة كما أسلفنا هي الوسيلة المستخدمة للتواصل بين أفراد المجتمع فهي بالتالي وسيلة التعامل في مختلف المجالات ولهذا فلابد لها من مسايرة التطور الحضاري في جميع النواحي، فمثلا التطور الاقتصادي في حاجة إلى التطور اللغوي سعيا إلى تلبية كل احتياجات الأفراد المتعاملين بهذا المجال.

يقول الدكتور "السعران": «إن طريقة العدّ وما في اللغة أو اللهجة من أعداد لا يزال عند بعض القبائل في مرحلة بدائية ساذجة، وهما يبلغان عند أعظم الأمم حضارة درجة عالية من التفصيل والتعقيد، وهذان يختلفان عند أصحاب اللغة الواحدة حسب حظ المتكلم من الثقافة»[16].

ففي الوقت الذي تستخدم فيه الأمم المتحضرة أرقى الأجهزة والآلات في عمليات حسابية دقيقة، ما تزال أمم أخرى تعتمد على الطرق البسيطة في العدَّ والحساب، فنجد الآن ألفاظا جديدة تطلق على الأجهزة المتطورة المستخدمة حديثا كالكمبيوتر، جهاز الحسابات، العقل الالكتروني...، فهذه الألفاظ الجديدة ظهرت بظهور أجهزة جديدة فحملت دلالات جديدة أيضا، إضافة إلى استخدام الألفاظ المطلقة على أنواع الآلات المستخدمة للحساب، فنجد ألفاظا تطلق في مجال الزراعة والصناعة، مثل: الجمعية الزراعية، الري والصرف، تركتور، جرافة دراسة.... وفي الصناعة نجد: ديزل، دركسيون...، فهذه ألفاظ جديدة ظهرت مع التطور الزراعي والصناعي حسب حاجة كل متعامل فيها، وعندما يحتاج إلى تسويق السلع فإن الإعلانات تقوم بعملها في هذا المجال، فتستخدم لغة الإعلانات المزخرفة بأنواع من الكلمات والعبارات المثيرة لحواس الناس دعوة للشراء أو جلب الزبائن، وتختلف الألفاظ المستخدمة حسب اختلاف نوع المنتوج، فالألفاظ المستخدمة في الإعلان عن مأكول ليست كالتي تستخدم في الإعلان عن جهاز أو دواء أو ملابس، كما تختلف باختلاف المجتمعات، فالمجتمع المتحضر تقتصر إعلاناته على عبارة قصيرة، أما المجتمعات الأقل تحضرا فإن إعلاناتها تمتاز بطول النداء والتغني والتلذذ في الكلام، بل إن الاختلاف يكمن حتى في أفراد المجتمع الواحد، وبين البائعين أنفسهم، وهذا باختلاف درجات ذكائهم وحيويتهم فنجد البعض يستخدم كلمات منمقة يلجأ فيها صاحبها إلى المجاز والتشبيه مثل العبارات المستخدمة في الأسواق المصرية: (يا بيض اليمام يا عنب) على العنب وعلى السمك البلطي بـــ (ياعزيم السلاطة يابلطي) ...، فالعقليات تختلف من أشخاص إلى آخرين، والحيل تختلف من بائع إلى آخر وبالتالي تختلف الألفاظ المستخدمة ويتبادل الأشخاص المعارف بجلب ألفاظا جديدة مثلما يحدث في السوق عند المزايدة فحضور مختلف البائعين من مختلف المناطق في سوق واحدة يؤدي

إلى حدوث احتكاك وتبادل في الألفاظ وزيادة دخول ألفاظ جديدة على لغة كل واحد منهم.

بالإضافة إلى الاختلافات في العبارة المستخدمة في كل ما ذكرناه نجد الاختلافات أيضا في الأساليب، ففي العصر الحديث أصبحت التعاملات الاقتصادية لا تقتصر على الكلمات المباشرة وحسب بل أصبح الناس يستخدمون كل الأساليب المناسبة من راديو إلى جرائد بعناوين بارزة إلى موسيقى وصور معبرة في التلفزيون عكس ما كان يحدث سابقا، فحدث تغير وتطور كبير في الحياة الاقتصادية أدى بالتالي ظهور ألفاظ ومسميات ذات دلالات جديدة، وهذا ما يساعد اللغة دوما على النمو والتطور جنبا إلى جنب مع كل تطور في الحياة الاقتصادية.

- **العامل الديني:** إن للأديان أثرا كبيرا في تطور الألفاظ ودلالاتها وذلك لأن الأديان تأتي بنواميس جديدة وشرائع ومعتقدات لم تكن موجودة قبل نزول الوحي ولهذا لا بد من استعمال ألفاظ جديدة، فالدين الجديد يأتي بالجديد وبكون اللغة العربية لغة القرآن الكريم فقد كانت مسايرة له، ووسعت كل ما جاء به، وقد ظهرت كلمات وعبارات جديدة ذات دلالات جديدة لم تعرف قبل الإسلام، وإن وجدت فإن دلالاتها تختلف عن الدلالة الجديدة التي اكتسبتها في ظل الإسلام. ويرى "ابن فارس": أن الإسلام هو أكثر الأسباب بل هو الوحيد لتطور اللغة العرب العربية، فقد تغيرت الحياة العربية به، إذ أدخلت فيه مصطلحات كثيرة لم تعرف عند العرب سابقا، وقد انتقلت الألفاظ من معانيها اللغوية الأولى للدلالة على ما جدّ في الحياة العربية عن طريق الإسلام، كما عرف بعد ذلك بالمعنى اللغوي، والمعنى الاصطلاحي للفظ، فيقول: «كانت العرب في جاهليتها على ارث من ارث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائهم وقرابينهم، فلما جاء الله – جل ثناؤه – بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع أخذ بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت...، فكان مما جاء في الإسلام

ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق، وأن العرب عرفت المؤمن من الأمان والإيمان، وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا سمي بها المؤمن بالإطلاق مؤمنا... ومما جاء في الشرع الصلاة، وأصله في لغاتهم الدعاء... فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنها أن يقول في الصلاة لغوي وشرعي ويذكر ما كانت العرب تعرفه ثم ما جاء الإسلام به، وهو قياس ما تركنا ذكره من سائر العلوم كانحو والعروض والشعر، كل ذلك اسمان: لغوي وصناعي»[17]

وكل الألفاظ التي نجدها مستعملة في مجتمعنا للتعبير عن أمر من أمور الدين هي أكثر الأدلة على اكتساب الألفاظ القديمة دلالات جديدة لم يسبق لمجتمعنا استعمالها قبل الإسلام، وكثيرا ما تستخدم هذه العبارات في مناسبات مختلفة دينية أم لا، كمناسبات النجاح والتفوق العلمي سواء كانت لواحد من الأشخاص مثل عبارات: (الحمد لله على نجاحك، اسم الله عليك، باركك الله).

فاللغة إذن تتغير بتغير ألفاظها أو اكتساب ألفاظها دلالات جديدة مع كل تغير يحدث في حياة الأفراد التي تتطلب دوما لغة قادرة على التعبير عن الخواطر والأفكار المختلجة في عقول ونفوس الأفراد «فهي نظام اجتماعي تخضع لما يخضع له المجتمع من مؤثرات تتطور بتطوره وتنمو بنموه، فإذا عرفنا مم يتكون المجتمع عرفنا بالتالي العوامل الاجتماعية التي تؤثر في التطور والتغير اللغوي»[18]

فمعرفتنا للدين الذي تعبر عنه اللغة العربية، يجعلنا نفرق كيف استطاعت اكتساب عوامل نموها وثرائها من هذا الدين، ويمكننا إدراك مدى تأثير الديانات في نمو اللغة وتطورها، فهي تدفعها لمسايرة ركب الحضارة وتطوره الدائم. فالدين الإسلامي له أثر كبير في تهذيب اللغة العربية والنهوض بها إلى أرقى مستوى خاصة في مجال الآداب، والأثر هذا يبدو واضحا في مختلف النواحي اللغوية سواء في الأغراض والمعاني والأخيلة أو الأساليب والألفاظ.

2 – عوامل التطور والتوسع في المعنى:

- **التوسع الاشتقاقي في اللغة:** اللغة العربية ككل اللغات تستند على أمور جوهرية لا يستغنى عنها، إذا فقدت أو أهملت ماتت اللغة أو توقفت عن النمو، وأكد "جبر ضومط" في كتابه «فلسفة العربية وتطورها» أن هذه المقومات شيء آخر غير ألفاظها فإن من الألفاظ ما تترادف وتكثر حتى تستثقل وتهجر، وأن من التراكيب ما يسقط من اللغة فلا يهدم سقوطه أركانها ولا تفسد بلاغتها زيادته.

أما الشيء الضروري الجوهري فمثل الاشتقاق لا تستقل لغة عن غيرها إلا به ولا تترقى إلا به، فإن استقل وترقى استقلت اللغة عن غيرها وترقت، وإن تميز الاشتقاق وانفرد في كل لغة من لغتين تميزت اللغتان وانفردت كل منهما عن غيرها، ومن ثم أخذ يدعو لفكرة الاشتقاق في العربية. ولأن العربية لغة اشتقاق قياس استغنت عن الأخذ من لغات أخرى إلا النادر اليسير، فقد أخذ علماء العربية علم المنطق من اليونان لكنهم لم يأخذوا ألفاظ هذا العلم بل وجدوا في ألفاظ العربية ما يغنيهم عن تلك الألفاظ فقالوا: موضوع، محمول، وقضية، وقياس، واستنتاج ... إلى غير ذلك. وفي مقال آخر بعنوان «ارتقاء اللغة العربية» جعل من أسباب هذا الارتقاء الاشتقاق.[19]

فمعظم اللغات تثرى عن طريقه وعن طريق استعمال الألفاظ مجازا فلكلاهما أثر مباشر في إثراء اللغة.

1- **الاشتقاق:** هو نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتهما معنا وتركيبا وتغيرهما في الصيغة[20]، والاشتقاق أيضا أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنا ومادة أصلية وهيئة تركيب لها، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا وهيئة، كضارب من ضرب، وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة حتى يرجع منها إلى صيغة هي أصل الصيغ دلالة إطراء أو حروفا غالبا كضرب فإنه دال على مطلق الضرب فقط[21]. أو يقال هو تحويل الأصل فمصدر (ضرب)

يتحول إلى (ضَرَبَ) فيفيد حصول الحدث في الزمن الماضي[22]. وإلى (يضرب) فيفيد حصوله في المستقبل وهكذا. وهذا التحول والاشتقاق إنما يلحق بالأصول الدالة على الأفعال والأحداث لأن هذه تتغير وتستحيل من طور إلى طور لما ينتابها من العوارض فالضرب مثلا: يختلف باختلاف زمن حدوثه وباختلاف الفاعلية والمفعولية إلى غير ذلك من الاعتبارات[23].

أما الأصول الدالة على المواد والأعيان وهو ما يسمونه بالجواهر والأسماء الجامدة، فليس بهذه المثابة ولا تلامسها هذه العوارض[24]، فكلمة أرض تدل على هذا الجسم الكروي الذي نعيش فيه ولا يطرأ عليه من العوارض ما يطرأ على الأفعال والأحداث، فلا يتغير لفظه ولا يشتق منه غيره، إلا ما سمع على أهل اللغة أنفسهم وما حولوه هم بألسنتهم لمادة (حجر) التي اشتقوا منها (استحجر الطين) ومن ناقة (استنوق الجمل)، ومن سيف (سافه) أي ضربه بالسيف[25]، ونتيجة القول أن اشتقاق كلمة من أخرى مما يقصد إليه العرب وله عندهم قياس يعرفونه وأسلوب يجرون عليه، ولا يجوز لمن جاء بعدهم أن يشتق ما لم يشتقوه هم: قال ابن فارس[26]: «أجمع أهل اللغة – إلا من شذ منهم – أن للغة العرب قياسا، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان، وأن الجيم والنون تدلان أبدا على الستر: تقول العرب للدرس جنة وأجنة الليل، وهذا جنين في بطن أمه. وأن الإنس الظهور، يقولون: آنست الشيء: أبصرته، وعلى هذا سائر كلام العرب»[27]. والاشتقاق وسيلة من وسائل نمو اللغة وتوالد موادها وتكاثر كلماتها، ولا يمكن لنا الحديث عن الاشتقاق وخاصة الاشتقاق العام دون التطرق إلى ذكر علاقته بالصيغ والأبنية، خاصة بالنسبة لنمو اللغة وتطورها، ذلك لأن الاشتقاق لا يتم دون قوالب تصاغ فيها المادة اللغوية، فالكلمة العربية تشتمل على عناصر أساسية:

- **المادة الأصلية:** وهي تتكون من ثلاثة حروف في العربية مثل:(ك – ت – ب)، بالنسبة لكلمة كتب وهي ترمز في نفس الوقت للدلالة الأصلية للمادة.
- **الصيغة التي ركبت عليها تلك المادة الأصلية:** وهي القالب الذي تصب فيه الكلمة، والذي يعطيها في الأخير الشكل والوزن أو الدلالة الوظيفية للكلمة.
- ومن وجود العنصرين السابقين معا نصل إلى العنصر الأخير وهو معنى الكلمة أو دلالتها المعجمية أو الاجتماعية.

فإذا كان الاشتقاق هو المادة الخام التي تصنع منه الكلمات فالصيغ والأوزان هي القوالب التي تصب فيها هذه المادة، وهذه الصيغ والأوزان منها ما هو معروف مثل اسم الفاعل، واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل واسما الزمان والمكان، واسم الآلة وأوزان الفعال وتصاريفها المختلفة وأنواع الجموع القياسية السالم منها وغير السالم. وقد جمع السيوطي في المزهر الكثير، كما أورد معاني بعض الصيغ.[28] ومنها ما هو نادر الاستعمال كالصيغ التي جاء على وزنها كلمة واحدة أو بضع كلمات وهو ما أسماه اللغويون القدماء نوادر الأبنية وقد خصص لها السيوطي فصلا مستقلا في المزهر.[29]

وعلى هذا فالاشتقاق لا يحقق وجوده أو يقوم بدوره في نمو العربية إلا في وجود هذه الصيغ والأوزان، ومن ثم فإن لها علاقة مباشرة بالاشتقاق تعمل معه وتدور في فلكه أو بمعنى أدق يدور هو في فلكها.

اختلف الرأي في قضية الأوزان والصيغ من حيث كونها قيدا على نمو الثروة اللفظية في اللغة العربية، وهناك رأي يقول: «أن اللغة العربية لا تكاد تظفر بجديد من الألفاظ يعتمد في وجوده على الاشتقاق لأن الصيغ الاشتقاقية التي تصاغ فيها الألفاظ لا تكاد تختلف على مر الأيام، فصيغ اسم الفاعل والمفعول، واسما المكان والزمان والمصادر وما إليها لم تختلف منذ أن وصلت إلينا نصوص اللغة. وقد تركزت فيها هذه الأصول والقوالب الاشتقاقية»[30]

وإذا أخذنا بهذا الرأي نقول ألا يدل تعدد معاني هذه الصيغ والأبنية على نوع من الحيوية والتجديد يغفر لها هذا الجمود الظاهري، إذ أننا نجد أن الصيغ الواحدة أحيانا على معان متعددة، فوزن (فعيل) مثلا: يدل على الصفة الثابتة نحو (كريم شريف، عليم) وفي الوقت نفسه تدل على الصوت نحو (صهيل- زئير)، كما يدل وزن (فعال) على مصدر(فاعل- يفاعل) مثل (قتال، عراك، سباق) وعلى أدوات وآلات مثل: (حزام، إناء وعاء) وأحيانا يدل على جمع (فعيل) مثل: (كرام، لئام طوال) ويدل وزن (أفعل) من الأفعال على متعدّ مثل: (فعّل)، الازم مثل (أخرج) وعلى وجدان الشيء مثل: أحصد الزرع أي بلغ أوان حصاده وغير ذلك من المعاني.[31]

ويمكن أن تدل أوزان متعددة على المعنى الواحد، فمبالغة اسم الفاعل تدل عليها صيغة فعال ويفعال ومفعول وفعل وفعيل، وعلى الأصوات فعّال وفعل، والألفاظ الدّالة على الأدوات والآلات وردت على أوزان متعددة منها فعول، قد ورد على وزنها عدد من الكلمات مثل: الناقوس، الساطور، ووردت كلمات أخرى على وزن: مفعل مثل: مبرد، وأخرى على وزن مفعال مثل مفتاح.[32]

كل هذا يعطي هذه الصيغ نوعا من التجديد ويعوّضها عن هذا الجمود الظاهري وهو ما يبدو واضحا على الصّيغ والوزان التي استخرجها العلماء القدماء إذ لا نجد أنها غير متساوية في استعمالاتها فبعض منها ظاهر النشاط كثير الاستعمال وبعض يعمل عمله في نمو اللغة وتجديدها، والبعض منها راكد جامد، ومع هذا يظهر أحيانا للباحث نشوء صيغ جديدة في عصور العربية بعد الإسلام مثال ذلك: الصيغة الناشئة من إضافة الألف والنون مع ياء النسب، مثل روحاني، وهي صيغة مولدة نجدها في كتب الصوفية. ونجد أيضا الصيغة التي تنشأ من إضافة ياء النسب مع تاء للدلالة على المذاهب كالاشتراكية، الصوفية، وكلها كلمات مولدة ذات صيغ لم

تكن معروفة في العربية القديمة. وقد أقر مجمع العربية في مصر، قياسية هذه الصيغة فاستفاد منها في توليد كثير من الكلمات للدلالة على المذهب.

أما في اللهجات العامية فإننا حين نلتفت إليها نجد ميلها إلى ابتداع نوع من الصيغ الجديدة، مثال ذلك: (تفعلت) في اللهجة الشامية مثل: (تكسلت تحمرن تجحشن،)[33]، حيث نجد مثل هذه الصيغ تزحف إلى الكتابات العربية المعاصرة ونجد كاتبا مثل "كمال يوسف الحاج" يشتق على هذه الصيغ كلمات كثيرة مثل قوله: (يتألهن) الإنسان أي يتشبه بالإله، وقوله: (يلفظن الفكر، يفكرن اللفظ)[34]. وعلى الرّغم من أن هذا يعد من التوليد المرضي إلا أنه يدل في الوقت نفسه على نوع من الزحف البطيء لصيغ جديدة إلى العربية.

هذا كله يدل على تعدد الصيغ وتعدد معانيها بل أحيانا تجتمع على معنى واحد وتختلف أحيانا أخرى وكذلك ظهور صيغ جديدة يدل كل هذا على نوع من التبدل والتطور في صيغ العربية، بالرغم من كونه بطيئا لا يكاد يلحظ إلا أنه ليس باستطاعتنا القول بأنها ستبقى هكذا إلى الأبد ذلك لأنها لم تكن ثابتة أو جامدة في الماضي، فيرى بعض الباحثين أن كل من الأوزان التالية: فاعيل وفاعول، فاعال من أقدم الأوزان وإن فاعيل بتطورها ولدت فاعل، وفعيل ومنها تولد فعل.[35]

إذن إمكانية تطور الصيغ أمر موجود بل هو حادث فعلا، فإذا أضفنا إلى كل هذا تعدد الصيّغ العربية وكثرة أوزانها هي بلا شك لم توجد دفعة واحدة، وإنما حدث ذلك على مراحل من التطور من التطور الطويلة ثم الحيوية الخاصة التي تتمتع بها في الدلالة على المعاني.

من كل هذا سنجد أن الاشتقاق العام من أهم طرق نمو اللغة العربية وإعدادها خلال تاريخها الطويل بالجديد من الألفاظ التي تستعين بها على الاستجابة لحاجات المتكلمين.

فالاشتقاق بطبيعته يمكّن المتكلمين باللغة العربية صياغة مفرداتها حسب قواعد قد نراها محدودة في النهاية ولكنها مجردة من الناحية الفكرية في نفس الوقت. والمتكلم حر في التعبير بها عن أغراضه، فهو يجد في متناوله من هذه الأوزان والصيغ كل ما يحتاج إليه، فيبنيها حسب مشيئته فهو صاحب التصرف في المشتقات وفي اختيار ما يلائمه منها وفق أغراضه وطبيعة تفكيره. وبهذا يظهر لنا الاشتقاق كوسيلة أساسية من بين وسائل نمو الثروة اللفظية في العربية، إذ يستطيع المتكلم أن يشتق ما يشتق من الألفاظ الصيّغ الجديدة ليعبر عن كل ما يساير ركب التطور والتقدم الحضاري دون أن يعجز أمام مخترع حديث في إيجاد تسمية له وبالاشتقاق ينال ما يسعفه. فالاشتقاق وسيلة هامة من وسائل تطور النمو اللغوي وبالتالي إثراء اللغة وتوسيعها بألفاظ مشتقات جديدة.

2- الإبدال والقلب: من بين العوامل المساعدة على التوسع اللغوي وعلى تطور اللغة ونموها، نجد الإبدال والقلب واللذان يعتبران من أنواع الاشتقاق وسنتعرض لهما دون التطرق إلى الرأيين المختلفين من معارض ومؤيد لأن المهم في دراستنا هذه هو إبراز ما لهما من أهمية بالنسبة للغة: نموها وتطورها، قال ابن فارس في فقه اللغة: «من سنن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعضها: مدحه مدهه، وفرس رفل رفّن، وهو كثير مشهور قد ألف فيه العلماء، فأما قوله تعالى: (فانفلق فكان كل فرق كالطود) فاللام والراء متعاقبان، كما تقول العرب: فلق الصبح وفرقه»[36]

وقال أبو الطيب في كتابه: «ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة، تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد حتى لا يختلف إلا في حرف واحد. قال: والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طورا مهموزة وطورا غير مهموزة، ولا بالصاد مرة وبالسين

أخرى. وكذلك إبدال لام التعريف ميما والهمزة المصدرة عينا، كقولهم في نحو أن عن لا تشترك العرب في شيء من ذلك، إنما يقول هذا قوم وذاك آخرو».[37]

مثال: إبدال الهمزة واوا: أكد — وكّدت. وقال "أبو حيان" في شرح التسهيل: قال شيخنا الأستاذ أبو الحسن ابن الصائغ: «قلما تجد حرفا إلا وقد جاء فيه البدل وهو نادر».

ومهما اختلفت الآراء في الإبدال فهو موجود سواء أكان إبدال حرف مكان آخر أو كان ذلك لهجة قوم فهو على الحالين موجود ومستعمل والأمثلة الشائعة أحسن دليل لإثبات حياة هذين العنصرين وتأثيرهما في النمو اللغوي، ومن بين هذه الأمثلة نذكر ما ورد في كتاب "يعقوب بن السكين":[38]

- إبدال الهمزة هاء: فمن إبدال الهمزة هاء: أيا وهيا، إياك وهياك، أتمال السنام وأتمهل إذا انتصب، وأرحت دابتي وهرحتها، أرقت الماء وهرقته.

- إبدال الهمزة عينا: ومن الهمزة والعين: آديته على كذا وأعديته: أي قويته وأعنته، كثأ اللبن وكثع: وهي أن يعلو دسمه وخثورته على رأسه في الإناء، موت ذؤاق وزعاق: وهو الذي يجعل القتل، التمىء لونه والتمع...إلى غيره من الأمثلة.

رغم الاختلافات في الآراء حول قضية الإبدال، فهو مستعمل في العربية وهو يؤدي إلى نمو اللغة وتطورها وهو كما سبق ذكره نوع من الاشتقاق، وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في المعنى والمخرج نحو: (نعق ونهق) المعنى متقارب إذ هو في كل منهما الصوت المستكره، وليس بينهما تناسب في اللفظ لأن في كل من الكلمتين حرفا لا يوجد نظيره في الكلمة الأخرى، غير أن الحرفين اللذين اختلفا فيهما أي العين والهاء متناسبتان في المخرج فمخرجهما الحلق، ولهذا سمي هذا النوع اشتقاقا أكبر.

ولم يقف العلماء عند تعريف الإبدال ومفهومه بل توسعوا فيه إلى أبعد من هذا وجعلوه بحيث يتناول ابدال حرف من حرف آخر مطلقا وافقه في المخرج كما في

الأمثلة السابقة أو لم يوافقه فيه بشرط حصول التناسب المعنوي بين اللفظين كقولهم: جمجمة وهمهمة متناسبتان في المعنى لا في المخرج.[39]

وكما اختلفت الآراء حول قضية الإبدال فإنها اختلفت كذلك في قضية القلب ومهما اختلفت فإن الأهمية لدراستنا هي الناحية التي يبدو فيها القلب كعنصر مهم في إثراء اللغة ونموها وتطورها. قال ابن فارس: «من سنن العرب القلب وذلك يكون في الكلمة ويكون في العبارة فأما الكلمة فقولهم: جبذ جذب وما أطيبه وأيطبه ربض ورضب، أنبض القوس وأنضب»[40]، ولبكت الشيء وبكلته إذا خلطته وأسير مكلب ومكبل، بكبكت الشيء وكبكبته: إذا طرحت بعضه على بعض. وفي الاشتقاق والتعريب يقول عبد القادر المغربي: «القلب يقال له الاشتقلق الكبير، وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في اللفظ والمعنى دون الترتيب مثل الفعل: جبذ المشتق من مادة الجذب، فإن الحروف في المشتق هي عينها في المشتق منه والمعنى فيهما متناسب، وإنما الفرق بينهما أن الباء في الأصل قبل الذال عكس الثاني، وهذا ما أراده بالقلب في هذا المقام»[41] أما الاشتقاق الصغير كـــ: ضرب من الضرب فإنهما اتفقا في الأمور الثلاثة: الحروف والمعنى والترتيب.

وبالرغم من قلة القلب في العربية إلا أنه ذو أثر كبير في تغير المعنى وتطور الألفاظ ودلالاتها أيضا.

وبهذا يظهر كل من الإبدال والقلب عنصران حيويان في حياة اللغة إذ أن لهما أثر كبير في نموها وتوسعها فبهما تظهر ألفاظ جديدة ذات دلالات والتي تجد طريقها في الاستعمال بين الناس وتنتشر وتجري على الألسنة وهذا بالتالي يؤدي إلى نمو اللغة ويساعد على اتساعها.

3 – **النحت والتركيب:** النحت عامل من عوامل التوسع اللغوي المؤثرة في اللغة، ومعناه في أصل اللغة: البري[42]. يقال: «نحت الخشب والعود إذا برأه وهذب سطوحه، ومثله في الحجارة والجبال. قال تعالى: (أتعبدون ما تنحتون)

وقوله: (وتنحتون من الجبال بيوتا) والنحت في الاصطلاح هو: أن تعمد إلى كلمتين أو جملة فتنزع من مجموع حروف كلماتها كلمة فذة تدل على ما كانت تدل عليه الجملة نفسها»[43]

والنحت في حقيقة الأمر من قبيل الاشتقاق وليس اشتقاقا بالفعل لأن الاشتقاق أن تنزع كلمة من كلمة، أما النحت أن تنزع كلمة من كلمتين أو أكثر، وتسمى تلك الكلمة المنزوعة منحوتة، والنحت ما يعرفه أهل اللغة أنفسهم وجروا عليه في كلامهم وفي المعاجم اللغوية شواهد كثيرة على ذلك.

ويقسم النحت إلى أربعة أقسام هي: النحت الفعلي، النحت الوصفي، النحت الاسمي، وأخيرا النحت النسبي.

لقد ظهر الاشتقاق كقوة لنمو اللغة وتكاثر كلماتها وتشعب صيغها لكنه سماعي مقيد بأزمان خاصة وأشخاص معنيين، وكما أن العرب القدامى ينحتون من الكلمات ما يستعملونه في كلامهم فإننا أيضا يمكننا أن ننحت ما يلزمنا وما تستدعيه الحاجة من كلمات جديدة.

والكلمات المنحوتة أي المركبة من كلمتين أو أكثر، تعد بالآلاف في الفارسية والأرمينية وفي عدة لغات أوربية كالإنجليزية والألمانية، أما في لغتنا فإنها تحصى بالعشرات، مما يصعب صوغ كلمات جديدة في شتى الميادين ولاسيما المختصة بالعلوم والفنون، ومن الأمثلة نذكر ما يلي:

- مشلوز[44]: اسم نوع من المشمش حلو النواة، وقد نحت من كلمتين: مشمش ولوز.
- برمائي: نعت يطلق على الحيوانات التي تعيش في الماء والبر وهو منحوت من كلمتين: بر وماء.
- محبرم: أي ماء حب الرمان، فهنا نحت من ثلاث كلمات.

وفي العربية من الكلمات المنحوتة المركبة من الكلمة «بنو» والمضاف إليها للدلالة على سلاسة شخص ومنها:

- بعبدر: أي بنو عبد الدار
- بلحرث: بنو الحرث
- بلهجيم: بنو الهجيم

وهناك نوع ثالث مختص بالأسماء المنسوبة مثل:

- عبشمي: عبد الشمس
- عبدلي: عبد الله
- مرقسي: من امرء القيس

وأكثر الكلمات العربية المنحوتة من النوع الرابع وهي تعبر عن قول كلمة أو كلمتين أو جملة كاملة وهي مركبة من بعض حروفها مع مراعاة ترتيبها في الغالب.

- بسمل: نطق بالبسملة، وهي عند النصارى اسم الرب والابن وروح القدس، وعند المسلمين: بسم الله الرحمان الرحيم.
- هلل: قال: لا إله إلا الله.
- حمدل: قال: الحمد لله.

كل هذه الأمثلة تدل على أن النحت وسيلة إثراء اللغة وزيادة مفرداتها وتراكيبها، وهي بالتالي تقدم للمتكلم فرصة التعبير على معنى كلمتين أو قد تكون جملة بأكملها بكلمة واحدة، فالنحت أمر يجعلنا قادرين على إيجاد الكلمات واستعمالها في حياتنا اليومية للتعبير عن معنى أو أكثر كان إيجاد لفظ مناسب له أمر صعب.

النحت وسيلة من وسائل النمو اللغوي عرفتها اللغة العربية منذ القدم، والأمثلة السابقة دليل على ذلك، فمثلا كلمة عبدري وعبشمي، وغيرهما تدل على أنها نحت

لتدل على النسبة إلى بعض القبائل في حين أن بعضها ظهرت في الاستعمال بعد ظهور الاسلام مثل: بسمل وحوقل.

وأخيرا يمكننا القول أن النحت من الطرق التي كان لابد لعلماء العربية أن يعطوها أهمية لأنها وسيلة تمد اللغة بألفاظ جديدة، وبالرغم من المواقف المتباينة التي حدّت من فاعلية النحت كوسيلة من وسائل النمو اللغوي في تنمية العربية، إلا أن هذه الظاهرة بقيت مروية بأمثلتها الشائعة والتي سبق لنا ذكرها حتى كانت النهضة اللغوية والعلمية في العصر الحديث حيث واجهت العربية تطورا في العلوم وأدوات الحضارة، فواجه العلماء مشكلة وضع المصطلحات العلمية للتعبير عن المسميات الجديدة، فكلمات كثيرة في اللغات الأجنبية لا نجد لها مقابلا في العربية وهذا ما جعل المجامع العربية تلجأ إلى وسائل عديدة لاستنباط المصطلحات وكان النحت طريقا من طرق النمو اللغوي وذلك لمواجهة العربية للتقدم والتطور السريع في الحضارة. ولوضع كلمات جديدة عن طريق النحت شروط هي:[45]

1- أن يكون اللفظ المنحوت نابيا في الجرس عن سليقته العربية.

2- أن يكون المنحوت على وزن عربي نطق به العرب على قدر الامكان.

3- أن يؤدي المنحوت جاجات اللغة من افراد وتثنية واعراب.

وبمراعاة هذه الشروط يصبح النحت وسيلة ايجابية في اثراء اللغة العربية وتجديد ألفاظها لتلحق التطور العلمي والحضاري الحديث في غير تنكر لطبيعتها أو عدوان على خصائصها.[46]

المجاز:

للمجاز أثر كبير في اللغة وهو عامل من عوامل التوسع اللغوي المؤثرة في تطور الألفاظ، ونمو اللغة وتوسعها.

إن لاتساع العلوم ورقي الأفكار تؤدي إلى تجدد المعاني، والتي لابد لها من أسماء تدل عليها، وللألفاظ المنقولة عن طريق المجاز أثر كبير في تعويض هذا

النقص وسره في مختلف العلوم والصناعات، ومجالات الحياة الاجتماعية، والبحث في الكتب الأدبية والعلمية يوضح كثرة الألفاظ التي دخلت اللغة من هذا الطريق فاتّسع نطاقها، وسهّل الكتابة في علوم مختلفة، سياسة كانت أو اجتماعية أو علمية أو أدبية لم تخض العرب فيها من قبل.

لا قيمة للمجاز ولا فائدة إذ يذهب إليها، ويطلب بسببها أمام الحقيقة، فالكلام مبني على الفائدة في حقيقته ومجازه، فالتعبير عن الدلالة بالألفاظ الحقيقية أولى ولا مجال للمجاز. وفي هذا يقول ابن الأثير: «اعلم أنه إذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه عن طريق الحقيقة، وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه فانظر فإن كان لا مزية لمعناه في حمله على طريق المجاز فلا ينبغي أن يحمل إلا على طريق الحقيقة لأنها هي الأصل، والمجاز هو الفرع ويعدل عن الأصل إلى الفرع إلا الفائدة».[47]

فالتعبير بالمجاز له أثر في النفس، «الكشف دون الكشف كله، والتلويح دون التصريح، وفي الإشارة دون العبارة تلفظا، لذلك فلن يكون هناك شوق إلى الشيء مع كمال العلم به، وكمال الجهل، بل إذا علم من وجه شوق ذلك الوجه إلى الآخر فتتعاقب الآلام واللذات، ويكون الشعور بتلك العلوم والآلام واللذات أتم، وعند هذا فالتعبير بالحقيقة يفيد العلم، والتعبير بلوازم الشيء هو المجاز لا يفيد العلم بالتمام، فيحصل دغدغة نفسانية، فكان المجاز ألطف وأبلغ من الحقيقة»[48]

إن عملية التجوز كانت تسمى الاتساع، ثم لم يكن يد من أن يكون لهذا الاتساع نصيب كبير في طبيعة الأسلوب المجازي. وإذا كان القول في المجاز هو القول في الاستعارة لأنه ليس هو بشيء غيرها، وإنما الفرق أن المجاز أعم من حيث أن كل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة، ويقول عبد القاهر الجرجاني: «وإذا نظرنا من المجاز فيما لا يطلق عليه أنه استعارة ازداد خطأ القوم قبحا وشناعة وذلك أنه يلزم على قياس قولهم أن يكون، إنما كان قوله تعالى: (وهو الذي جعل

لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصر) أفصح من أصله الذي هو قولنا: والنهار لتبصروا أنتم فيه أو مبصرا أنتم فيه: من أجل أنه حدث في حروف مبصر- بأن جعل الفعل للنهار»[49]

وجاء في المزهر للسيوطي: «والمجاز إما لأجل اللفظ أو المعنى أو لأجلهما كأن تكون الحقيقة ثقيلة على اللسان، إما لثقل الوزن أو تنافر التركيب أو ثقل الحروف أو عوارضه، أن يكون المجاز صالحا لأصناف البديع دون الحقيقة، وقد يأتي لأجل التعظيم، أو للتحقير أو التلطيف».[50] إلى غير ذلك من المقاصد المطلوبة في الكلام، وكثيرا ما يكون المجاز وسيلة للتعبير عن خيال الفنان والمسرحي كلما طلب ذلك تعويضا عن لفظة لها معنى مناسب لما في خيالهم، إذ قد تكون اللفظة الأولى مستهلكة أو تنفر منها الأسماع أو تأباها الأذواق، أو يرفضها المؤلف أو الكاتب لفهم معين اقترن بها في الذهن وهو مالا صلة للكلمة به، وفي ذلك يقول ابن الأثير: «وأعجب ما في العبارة المجازية أن تنقل السامع من خلقه الطبيعي في بعض الأحيان حتى أنها ليسمح بها البخيل ويشجع بها الجبان، ويحكم بها الطائش المتسرع، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمرة حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة، واقدام على أمر مهول، وهذا هو فحوى السمر الحلال المستغنى عن الفاء والعصا والحبال».[51]

ونعلم أن كل ممنوع مرغوب، وأن «النفس دائما تبحث عن الخفي وذلك طلبا للمعرفة والعلم، أليس الإغراء يكون في بعض على سعة الكلام- وصنف لم يكن».[52]

وقد أكد اللغويون هذا الاتساع بما هو زيادة في الأسماء وخلع أوصاف تخص في الحقيقة الأعيان والجواهر على الأحداث والأعراض بما هو لون من التأكيد.[53]

شأن استعمال لفظ السؤال مع ما لا يصح في الحقيقة سؤاله أو وضع لفظ الواحد للجماعة.

إذن المجاز وسيلة من الوسائل الرابطة بين الفكر والطبيعة على نحو ما، وذلك ما يوضح قول القدماء: «استعارة الشيء المحسوس للشيء المعقول» هي الصورة المادية التي تعطي علاقة غير مادية. والتجوز يحدث أثر إنما هو معين على تحقيق وحدة الحياة بلونها المادي والمعنوي.

المجاز يعطي دلالات ومعاني جديدة للألفاظ، لما فيه من اتساع في المعنى، كما أنه يجدد في حياة الألفاظ ويبعد عنها الخمول والرتابة، فنجد الشعراء والأدباء وغيرهم ممن يهتمون باللغة، يستخدمون ألفاظا معينة فيستخدمونها بطريقتهم الخاصة بحيث تختلف مع الأشخاص العاديين. فالشعراء واللغويون حين يستخدمون اللغة فهم يوسّعون حينا، ويضيقون حينا آخر في مدلولات الألفاظ، وذلك على حسب ما يقتضيه النص أو التعبير الذي يتخذونه لإيصال فكرة معينة، وبذلك يعطون للألفاظ حياة جديدة، ويعطون مصطلحات جديدة للغة.

«فالتجوز في اللغة له أر كبير في خلق مفردات ودلالات جديدة، وبهذا يعطي اللغة ثروة لغوية تساير التقدم الحضاري الذي نعيشه وتبعث ألفاظا جديدة كان قد حكم عليها بالرقود أو الموت، والتجوز في اللغة أسلم للغة وأحفظ لها من إدخال المعربات الأجنبية دون ضبط ودون مراعاة لما قد تؤول إليه لغتنا إذا تركناها نهبا للغات الأخرى تدخل إليها حين تشاء وكيف ما تشاء».[54]

فالتجوز له فائدة على اللغة، فهذا الأخير ساعدها على الثراء، وذلك مما يقدمه من مفردات ودلالات يستعين بها الكاتب أو الشاعر، بحيث أن التجوز مكنه من اختيار كلمة بديلة إذا عجز عن إيجاد اللفظة المناسبة للتعبير عن أفكاره وما يختلج في نفسيته. مثل استعمال كلمة جواد للكريم، وأسد للشجاع. وكقول امرؤ القيس واصفا الليل الذي زاد من حدة التوتر وضيق نفسيته:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت لـــه لما تمطى بصلبـــه وأردف أعجازا وناء بكلكل

من هذا نستنتج أن المجاز هو طريق من طرق التّوسع، وإثراء اللغة، وسد أوجه النقص في ألفاظها وتراكيبها.

والباحث في كتب اللغة والأدب والعلوم ومعاجم المصطلحات العربية القديمة يقف على عدد كبير من الألفاظ التي دخلت العربية بمدلولات جديدة عن هذا الطريق.[55]

فبذلك أصبح نطاق التعبير في اللغة واسع، مما سهل للمؤلفين والعلماء الكتابة والتعبير في شتى المواضيع علمية كانت أم فنية، لم تعرفها العربية القديمة من قبل وعلى هذا تم نقل الألفاظ إلى معان جديدة ثم جرى أيضا نقل عدد كبير من الأسماء المستحدثة في العلوم والفنون، وخاصة الأسماء التي تتعلق بالمخترعات والاستكشافات الحديثة.

ونستنتج أيضا أن المجاز واسع، ويكمن أثره في أنه عامل من عوامل التوسع اللغوي المؤثرة في تطور اللغة ونموها، وهو «عامل عام في سد أوجه النقص في الألفاظ والدلالات التي نحتاجها في حياتنا اليومية والتي يحتاجها الكتاب».[56]

الهوامش

1- أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، دراسة في نمو وتطور الثروة اللغوية، دار الأندلس بيروت، ط1، 1403هـ، 1983، ص 15.

2- جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة، مطبعة الهلال، سنة 1911م، ص 43.

3- أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص177.

4- سورة البقرة الآية 144.

5- سورة البقرة الآية 149.

6- سورة البقرة الآية 150.

7- سورة البقرة الآية 144.

8- سورة الأعراف الآية 47.

9- سورة يونس الآية 15.

10 - سورة القصص الآية 22.

11 – عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، القاهرة، دار المعارف، 1968، ص 196-197.

12 – أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 180.

13 – محمود السعران، اللغة والمجتمع، ط 02، الإسكندرية، دار المعارف، 1962، ص 46.

14 – محمود السعران، اللغة والمجتمع، ص 47.

15 – عبد الواحد وافي، فقه اللغة، القاهرة، ط6، دار النهضة، مصر، ص133.

16 – أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص196.

17 – ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشويمي بيروت مؤسسة بدران للطباعة، 1963م، ص 78-81 (لغوي وصناعي: انتقال اللفظ من معناه اللغوي إلى معناه الإصطلاحي)

18 – أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص202.

19 - عبد الحميد الشلقاني، رواية اللغة، مصر، دار المعارف، 1970، ص 18.

20 – ابن جني، الخصائص، ج2، ص 133.

21 – عبد القادر المغربي، الاشتقاق والتعريب، ط2، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر 1947، ص 2 وما بعدها.

22 – السيوطي، المزهر، ط1، ص 345 وما بعدها.

23 – عبد القادر المغربي، الاشتقاق والتعريب، ص 08.

24 – عبد القادر المغربي، المصدر نفسه، ص ن.

25 – السيوطي، المزهر، ج1، ص 345.

26 – ابن فارس، الصاحبي، ص 33.

27 – السيوطي، المزهر في علوم اللغة، ج 1، ص 346.

28 – السيوطي، المزهر، ج2، ص 4 وما بعدها، ص 42 وما بعدها.

29 – السيوطي، المزهر، ج2، ص 42.

30 – السيد أحمد خليل، دراسات في القرآن، القاهرة، دار المعارف، 1972، ص 57.

31 – أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 26.

32 – محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، بيروت، دار الكتاب، 1968، ص 137.
33 – محمد المبارك، فقه اللغة، ص 19.
34 – كمال يوسف الحاج، في فلسفة اللغة، بيروت، دار النهار، 1967، ص 76– ص 77.
35 – عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 27.
36 – ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص 173.
37 – أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 29.
38 – أحمد عبد الرحمان حماد، المصدر نفسه، ص 30.
39 – عبد القادر المغربي، الاشتقاق والتعريب، ص 11 وما بعدها.
40 – السيوطي، المزهر، ص 476.
41 – عبد القادر المغربي، الاشتقاق والتعريب، ص 10.
42 – أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 34.
43 – ابن فارس، الصاحبي، ص 227.
44 – رفائيل نخلة اليسوعي، غرائب اللغة العربية، ص 50، ص 51.
45 – أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 40.
46 – حلمي خليل، المولد في اللغة، رسلاة دكتوراه، 1975، ص 63.
47 – ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، القاهرة، مطبعة نهضة مصر، 1961، ج1، ص 26.
48 – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، نشر السيد محمد رشيد رضا، ط2، مطبعة المنار 1331هـ، ص 356.
49 – عبد القاهر الجرجاني، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
50 – السيوطي، المزهر، ج1، ص 26.
51 – ابن الأثير، المثل السائر، ص 26.
52 – السيوطي، المزهر، ص 356.
53 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
54 – أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 57.
55 – المصدر نفسه، ص ن.
56 – م ن، ص 58.